دور التراث العلمي واللغوي في وضع المعجم العربي الحديث المتخصص

د.عبد اللطيف عبيد (*)

المصطلح قوام المعجم المتخصص، وأداة رئيسيّة لا غنى عنها في نقل العلم والتّقانة وتبادلهما ونشرهما وتوطينهما بالترجمة والتأليف والتدريس والإعلام.

والمصطلح علاقة بين مفهوم وتسمية، أو هو، بتعبير أدقّ، تسمية تختصّ بالدّلالة على مفهوم علميّ أو تقانيّ أو حضاريّ في مجال محدّد.

ويُطرح موضوع التسمية من زاوية ما يسمّى في علم المصطلح بالموارد المعجميّة أو المصطلحيّة. ومن المعلوم أنّ المفهوم سابق للتسمية، وأن التعامل مع المفاهيم وبها يقتضي تسميتها. وتتمّ عمليّة التسمية إمّا باستخدام التسمية القديمة الموجودة في اللغة، أي إعادة استعمالها أو إحيائه، وهذا بالنسبة إلى المفاهيم المعروفة المتداولة، أو المفاهيم الجديدة التي لها علاقة مشابهة بالمفاهيم القديمة أو بتوليد التسمية من اللغة توليداً لفظياً بالاشتقاق أو التركيب أو النّحْت أو الارتجال، أو توليداً دلاليّاً بالمجاز أو الترجمة الحرفيّة، وإما باقتراض التسمية من لغة أجنبيّة أو من مستوى آخر من مستويات اللغة المعنيّة. وعلى صعيد أهمية استخدام هذه الوسائل يأتي استخدام التسميات الموجودة، ولا سيّما التسميات التراثية منها، في المقدّمة وذلك لسببين رئيسيين: لغويّ وحضاريّ، ويتمثل السبب اللغويّ في أن استخدام المصطلح التراثي ضرورة تحتمها حقيقة اللغة، وهي أنها مؤسسة اجتماعية وملك للجماعة، لذلك فإنه من واجب الفرد أن يستخدمها كما وصلت إليه، وألاّ يغير فيها أو يخرج عنها إلاّ لأسباب وجيهة، إضافة إلى ضرورة توافر معايير المقبولية في البديل الذي يقدّمه. أما السبب الحضاريّ الذي يجعل من الرجوع إلى التراث أمراً ذا أولويّة ووضع التسميات المصطلحية العربية فهو ما نعلمه من حرص العرب على استمرارية لغتهم ووحدتها عبر الزمان، وتجنّب قطيعتها عن ماضيها، إضافة إلى حرصهم على وحدتها عبرالمكان.

وما فتئت المجامع والهيئات العلمية واللغوية والندوات المصطلحية تشدد على أهميّة التراث وضرورة إيلائه الأولويّة في ما يستخدم من وسائل لوضع المصطلحات الجديدة، من ذلك أنّ " ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلح العلميّ العربيّ " التي عقدها بالرباط، مكتب تنسيق التعريب من 18 إلى 1981/2/20 قد نصّ المبدأ السادس من " المبادئ الأساسية في اختيار المصطلحات العلميّة ووضعها " التي أقرتها على " استخدام الوسائل اللغوية في توليد المصطلحات العلميّة الجديدة بالأفضليّة طبقاً للترتيب التالي: التراث فالتوليد بما فيه من مجاز واشتقاق وتعريب ونحت ".

(*) المعهد العالي للغات -جامعة تونس

وقد كان للتراث اللغويّ والعلميّ أثر واضح في ما وُضع من تسميات مصطلحية في بداية النهضة الحديثة في البلدان العربيّة عامّة ومصر خاصّة، من ذلك أنّ كثرة الكتب الطبيّة التي ترجمت في عهد محمّد علي قد تطلّبت عمل قاموس طبيّ بالوضع أو الترجمة "فأحضر كلوت بك من فرنسا " قاموس القواميس الطبية " Dictionnaire des dictionnaires de médecine » تأليف فابر (Faber) وهو في 8 أجزاء ويشتمل على جميع الاصطلاحات العلمية والفنيّة في الطبّ والنبات والحيوان والعلوم الأخرى المختلفة المتصلة بالعلوم الطبيّة" [1] ويذكر الشيخ محمد بن عمر التونسيّ أنّ مدرسة الطبّ قد تعاونت بكلّ هيئاتها على ترجمة هذا القاموس إلى اللغة العربية " ففرقه ناظر المدرسة إذ ذاك " وهو الدكتور برّون " على مهرة معلّميها (...) فترجم كلّ منهم الجزء الذي أعطيه، واجتهد في توقيع لفظه على المعنى حتى شكرت مساعيه "[2]. على أنّ الدكتور برّون قد أحبّ إثراء هذه الترجمة بالألفاظ والمصطلحات الطبيّة القديمة، فوزّع القاموس المحيط للفيروز أبادي على فريق المترجمين، وأشرك معهم مصححي المدرسة- ومنهم الشيخ محمّد بن عمر التونسي وأمر كلاّ منهم أن يراجع الجزء الذي بيده، وينتقي منه " كلّ لفظ دلّ على مرض أو عرض، وكلّ اسم نبات أو معدن أو حيوان"[3] . ويذكر التونسيّ أن الدكتور برّون خصّه" باستخراج ما في القانون من التعاريف، وما في تذكرة داود من كلّ معنى لطيف، وزدت على ذلك ما في فقه اللغة، ومختصر الصحاح، وما في الهرويّ من التعاريف الصحاح... "[4]. وكانت نتيجة هذا العمل المصطلحيّ الجماعيّ المهمّ معجم "الشذور الذهبيّة في الألفاظ الطبيّة "[5].

وعلى الرّغم من أنّ أثر هذا المعجم في الأعمال المصطلحيّة اللاحقة قد كان ضعيفاً بسبب عدم نشره وتداوله، فإنّ منهجيّة إعداده دالّة على وعي بضرورة ربط حاضر اللغة العربية العلمية في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر. بماضيها الزاهر، وبأهمية الإفادة من التراث العلميّ واللغويّ سواء بإحياء المصطلحات التي لاتزال صالحة للاستخدام أوبتضمين الألفاظ اللغويّة معاني جديدة تنتقل بها من معانيها الأولى إلى معانٍ اصطلاحيّة علميّة وتقنيّة. ويرى مصطفى الشهابيّ في سياق حديثه عن النهضة العلميّة في مصر في القرن التاسع عشر " أنّ النقلة والمؤلفين والمصحّحين فيها كانوا روّاد نقل العلوم الحديثة إلى لساننا، وأنهم كانوا يرجعون في تحرّي المصطلحات العربية إلى كتبنا القديمة، ويستخرجون منها ما يرون استعماله من ألفاظ صحيحة. وقد استطاعوا الانتفاع بجملة صالحة منها في مختلف العلوم التي عالجوها بالترجمة أو بالتأليف (...) ومع هذا ممّا لا مشاحة فيه أنّ مصطلحاتهم المقتبسة والموضوعة كانت نواة جيّدة لجميع من ألّفوا بعدهم كتباً علميّة بلغتنا الضاديّة ".[6]

وفي النصف الأوّل من القرن العشرين طُرح موضوع إحياء التراث العلميّ واللغويّ بهدف الإفادة من مصطلحاته وألفاظه في وضع المعجم العربي الحديث المختص وذلك في إطار المجامع ولدى المصطلحيّين الأعلام، ونعني بهم خاصّة محمد شرف مؤلّف "معجم العلوم الطبية والطبيعية" وأحمد عيسى مؤلف " معجم أسماء النبات"، وأمين المعلوف مؤلف "معجم الحيوان"، ومصطفى الشهابيّ مؤلف "معجم الألفاظ الزراعية" [7]، ومرشد خاطر وأحمد حمدي الخيّاط ومحمّد صلاح الدين الكواكبيّ مترجمي "معجم المصطلحات الطبيّة" للدكتور أ.

ل كليرفيل [8]. وقد دعا مجمع اللغة العربية بالقاهرة إلى ضرورة العودة إلى التراث العلميّ لدراسته واستقراء مصطلحاته وجردها بهدف تكوين المدوّنات المصطلحيّة التراثية الوصفيّة لينطلق منها في العمل على التسميات التي ينبغي للمعجم العربي الحديث أن يتضمّنها بالاختيار أو الوضع. وقد تجسمت هذه الدعوة خاصّة في قرارات- أي توصيات- أصدرها المجمع، ونشير منها إلى قرارين صدر أولهما في الدورة الثانية عشرة (1945) وثانيهما في الدورة الحادية والعشرين 1954). وينصّ القرار الأوّل على أن "ينظر المجمع في اختيار مختصّين بشؤون العلوم العربيّة لإخراج المصطلحات العلميّة القديمة من الكتب العربيّة، وعرض كلّ فرع على اللجنة المختصّة، وإذا لم تكن لجنة مختصّة تشكّل لجنة جديدة[9] . أما القرار الثاني فينصّ على أن " تدرس كتب العرب القديمة المتصلة بالمصطلحات العلميّة، ويعمل لكلّ كتاب منها معجم بالمصطلحات التي وردت فيه، بحيث تكون هذه المعاجم في متناول الأيدي عند التعريب "[10] . على أننا لا نعرف لمجمع اللغة العربيّة بالقاهرة ولسائر المجامع اللغوية العربيّة أعمالاً تطبيقيّة

شاملة في مجال إحياء المصطلح العلميّ العربيّ القديم، على الرغم من تواصل الدعوة إلى هذا الإحياء سواء في مؤتمرات هذه المجامع أو على صفحات مجلاتها[11].

أما المصطلحيون الأعلام، الذين سبق أن أشرنا إلى أبرزهم في النصف الأوّل من القرن العشرين، فقد جمعوا بين التخصص العلميّ والخبرة اللغوية ومعرفة التراث والقدرة على التعامل معه. وقد سمح لهم ذلك بالعودة إلى أمّهات كتب اللغة ومؤلّفات العلماء القدامى، فأفادوا منها إفادة واعية، وإن كانت، غالباً، محدودة وجزئية بسبب ضخامة التراث اللغويّ والعلميّ وقصور الجهد الفرديّ عن استيعابه. وتتضح إفادة هؤلاء المصطلحيّين الأعلام من التراثين اللغويّ والعلميّ، سواء من خلال مقدّمات معاجمهم، أو ممّا اقترحوه من مقابلات عربيّة تراثية للمصطلحات الأجنبية الإنجليزية أو الفرنسيّة. فمصطفى الشهابيّ في مقدّمة معجمه الشهير- "معجم الألفاظ الزراعيّة"[12]- يعدّد أنواع المؤلفات المعجميّة والمصطلحيّة التي رجع إليها فيذكر، بالنسبة إلى كتب اللغة، أنه عمد "في تحرّي أصلح الألفاظ العربيّة إلى الأمهات من كتب اللغة، ولاسيّما المخصّص لابن سيده والقاموس المحيط للفيروز أباديّ "[13]، فأخرج منهما عدداً كبيراً من التسميات التي تتصل بالعلوم الزراعيّة؛ ويذكر، بالنسبة إلى المصنّفات الزراعية والطبيعيّة والطبيّة، أنه استقرأ ما وجد من " مصطلحات في مخطوطة كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشيّة، وفي كتاب الفلاحة الأندلسيّة لابن العوّام الإشبيليّ (...)، ومخطوطة فضل الخيل لشرف الدين عبد المؤمن الدمياطيّ، والفلاحة اليونانيّة لقسطا بن لوقا، وعلم الملاحة في علم الفلاحة للشيخ عبد الغنيّ النابلسيّ، وحسن الصناعة في علم الزراعة لأحمد ندى، وحسن البراعة في علم الزراعة لفيجريّ، والمادة الطبيّة لأحمد الرشيديّ، والقانون لابن سينا، ومخطوطة الجزء الخامس من كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوريّ، ومخطوطة الجامع لصفات أشتات النبات للإدريسيّ... إلخ " [14]، وذلك بالإضافة إلى مفردات ابن البيطار، وحياة الحيوان للدميريّ، وكشف الرموز لعبد الرزاق الجزائريّ، ورسائل الأصمعيّ في الخيل والنبات والشجر، "وغير ذلك من الكتب القديمة والكتب التي ألفت في النهضة الحديثة في مصر والشام "[15]. وذكر الشهابيّ أيضاً أنه اقتبس ألفاظاً وضعها أو حقّقها مؤلفون معاصرون مثل أمين المعلوف صاحب معجم الحيوان والمعجم الفلكي، وأحمد عيسى

صاحب معجم أسماء النبات، ومحمد شرف صاحب معجم العلوم الطبية والطبيعية وماكس ما يرهوف الذي ترجم وصحّح ونشر كتاب شرح أسماء العقار لموسى بن ميمون الإسرائيليّ القرطبيّ، وغيره من المستشرقين والعلماء الأوربيين الذين درسوا نبيت البلاد العربية ووحيشها[16].

ويعدّ رجوع الشهابيّ إلى التراثين اللغويّ والعلميّ وإفادته منهما أساسي منهجيته المصطلحيّة القائمة على تفضيل التسمية القديمة- سواء أكانت صحيحة عربية أم معرّبة أم مولّدة سائغة- على غيرها من التسميات. فهو يقول: " كلّما وجدت في المعجمات العربية القديمة، أو في كتب الزراعة والنبات والحيوان القديمة الموثوق بها، كلمة صحيحة عربية أو معرّبة، أو كلمة مولّدة سائغة، لها معنى موافق أو مقارب لمعنى الكلمة الفرنسية أو العلميّة، رجحت تلك الكلمة الصحيحة أو المولّدة الشائعة على غيرها من الكلم، وإذا وجدت في المراجع المذكورة لمدلول الفرنسيّة أو العلميّة كلمتين، واحدة صحيحة، والثانية

مولّدة، رجحت الأولى على رفيقتها، أو ذكرتهما جميعا"[17]. ومن أمثلة المصطلحات التراثية في " معجم الألفاظ الزراعيّة" مصطلح الـ " قطل " الذي جعله الشهابيّ مقابلا للمصطلح الحراجيّ الفرنسيّ Abatage،(ويقابله في الإنجليزية المصطلح Felling) ومرادفاً للـ " قطع " وفضّله عليه- إذ ذكره قبل الثاني- لما في الأوّل من خصوص وفي الثاني من عموم، وعرّفه بأنه "فصل الأشجار عن أرومائها وطرحها على الأرض"، ثم ذكر أنه "في المخصّص (لابن سيده) القطل قطع الشجر وفيه قطلت الشجرة أقطلها فتقطلّت إذا ضربتها من أصلها"[18].

وفي النصف الثاني من القرن العشرين توسّع استخدام اللغة العربية على الرغم من تعثر جهود التعريب، واتضحت فوضى المصطلحات العربية لأسباب عديدة يهمّنا منها، هنا ، قلّة الجهود المنهجيّة والتطبيقيّة المبذولة في مجال إحياء المصطلح التراثيّ العلميّ واللغويّ ودراسته، بهدف الإفادة منه في وضع المعجم الحديث المختصّ [19]، وذلك لكون التسمية المصطلحيّة الملائمة عندما توجد في التراث تكون مستقرّة موحدة في الغالب، وبالتالي فإنّ استعمالها يساعد على تفادي الدلالة على المفهوم العلميّ الواحد بأكثر من تسمية [20]، إضافة إلى أنّ تلك التسميات التراثيّة غالباً ما تكون أيضاً " أكثر دقّة وأشدّ طلاوة من كلمات مرادفة لها في كتاباتنا العلميّة المعاصرة" [21].

وإنّ التسميات المصطلحيّة التراثيّة الدقيقة الصالحة للاستعمال الحديث في العديد من المجالات والتي غفل عنها المصطلحيّون ومؤلّفو المعاجم الحديثة المختصّة واستعاضوا عنها بمولدات أقل منها دقة وطلاوة، إضافة إلى ما تتصف به من تعدّد وفوضى، تسميات أكثر من أن تحصى. ونحن نكتفي هنا بتقديم مثالين أولهما من مجال الجيولوجيا، وثانيهما من مجال الزراعة:

نجد في العديد من المعاجم الأجنبيّة العربيّة المختصّة في الجيولوجيا والجغرافيا والطاقة والمياه وغيرها مقابلات كثيرة للمصطلح الجيولوجيّ الإنجليزيّ Aquifer (وهو في الفرنسية Aquifère) الذي عرّف بأنه " مكوّنة تشتمل على ماء (سرير أو طبقة)، وتتشكّل من صخور نفّاذة أو رمل أو حصى، وقادرة على توفير كميات ماء مهمّة". وهذه المقابلات العربية مولّدات اقترحتها المعاجم الصادر أغلبها في السنوات الثلاثين الأخيرة، ومنها: ذو ماء، محتو على ماء، طبقة صخرية مائيّة، مستودع ماء أرضيّ، طبقة

حاوية للماء، تكوّن مائيّ، طبقة مائيـــة، طبقـــة خازنـــة للماء،... إلخ. وقد غفلت كلّ المعاجم التي اطلعنا عليها- وعددها يزيد على العشرة- عن التسمية العربية الأصـــيلة التي تتضمّنها المعاجم اللغويّة، بدءا من الرسائل اللغوية في القرنين الثاني والثالث للهجرة، وهي "الحِسْيُ". . فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: " الحسي: الرمل المتـــراكم أسفله جبل صلد، فإذا مُطِرَ الرمل نَشِفَ ماءُ المطر، فـــإذا انتهى إلى الجبل الذي أسفله أمسك الماء ومنع الرمل حـــرّ الشمس أن يُنَشّف الماء، فإذا اشتدّ الحرّ نَبَتَ وجه الرمـــل عن ذلك الماء فنبع بارداً عذباً؛ قال الأزهريّ: وقد رأيت بالبادية أحساء كثيرة على هذه الصفة (...). الجوهريّ: الحِسْي، بالكسر، ما تنشّفه الأرض من الرمل، فإذا صـــار إلى صلابة أمسكته فتحفر عنه الرمل فتستخرجه، وهو الاحتساء... "[22]. ويتضح مما ورد في اللسان أنّ لفظ " الحسي" يؤدّي المفهوم العلميّ الذي تدلّ عليه التســـمية المصطلحية الإنجليزية Aquifer أداء دقيقا لما بين ذلـــك المفهوم الجيولوجيّ والمعنىّ اللغويّ للفظ العربيّ من تطابق تامّ مما يغني عن وضع تســـمية جديـــدة، إضـــافة إلى أنّ التسمية العربية الأصيلة تتوافر فيها معايير أخرى من معايير المقبولية، أهمّها أنها تسمية مفردة، مختصرة، أحادية الدلالة، متواصلة الاستخدام إلى يومنا هذا في العديد من الأقطـــار العربية خاصّة في مجال تسمية أعلام الأماكن.

ونجد في العديد من المعاجم الأجنبيـــة – العربيـــة المختصة في الزراعة وما يتصل بهـــا مقـــابلات كـــثيرة للمصـــطلح الزراعـــيّ الإنجليـــزيّ Greenhouse (أو Glasshouse أو Hothouse) (وهو في الفرنسيّة: Serre) الذي عرّف بأنه " بناء من زجاج تستنبت فيه البكائر أو نباتات البلاد الحارة التي لاتتحمّل شتاء بلادنا في الهـــواء الطلق "[23]، ثمّ حُدّث التعريف بسبب الاستعاضة عـــن الزجاج، خاصّة في بلادنا، بالأغشية اللدائنيّة (البلاستيكيّة) فأضيف إليه ما يلي: " تجهيزات معدّة لزارعة بعض الخضر والأزهار في غير أوانها (موسمها) لإكثار النباتات "[24]. والمقابلات العربية مولّدات أيضاً اقترحتـــها المعـــاجم أو استنبطتها وسائل الإعلام، وأهمها: دفيئة (وقد وضعه مجمع القاهرة)، مِصْرَى (وقد وضعه اللغويّ العلاّمة الأب ماري أنستاس الكرمليّ)، وَأْمٌ، صوبة، بيـــت مكيّـــف، بيـــت استنبات، بيت أخضر، بيت زجاجيّ،... إلخ. وقد غفل مقترحو هذه المولّدات ومرتجموها عن تسمية عربيّة مولّدة قديماً حفلت بها بعض كتب الفلاحة الأندلســـية وهـــي "البيت المكنّ ". فقد ورد هـــذا المصـــطلح في "كتـــاب الفلاحة" لابن بصّال- وهو من علماء القـــرن الخـــامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد- عند حديثه عن زراعـــة خيار شنبر الذي قال عنه إنّه "يوافقه من الأرض والهـــواء مثل ما يوافق المخيطا إلاّ أنّ غراسته تكون في شهر ينـــاير ويحين نباته في أبريل، فإذا نبت وقرب فصل الشتاء حجب عنه وأدخل في البيوت المكنة بالليل لئلا ينـــزل عليـــه الجليد لأنّ الحريق يسرع إليه ويخاف عليه ذلك في البلاد الباردة"[25]. ويتّضح من عبارة ابن بصّـــال أن " البيـــت المكن " أو، إن شئنا اختصاراً، "المكنّ " تســـمية تـــؤدّي المفهوم التقنيّ الزراعيّ الذي تدلّ عليه التسمية الإنجليزيـــة Greenhouse أداء دقيقاً خاصّة أنّ هذه التقنية الزراعيّـــة (الكنّ) قد عرفها الأندلسيّون منذ القرن الخامس للهجرة أو حتى قبله، وسمّوا وسيلتها التي لاتختلف عـــن الوســـيلة العصرية إلاّ في مادّتها. والتسمية العربية التراثية- سواء في صيغتها المركّبة أو المعدّلة المفـــردة- موحّـــدة، موحيـــة بالمفهوم، قابلة لأن تتوالد منها تسميات أخرى ضـــرورية للدلالة على سائر عناصر المنظومة المفهومية أهمّها "الزراعة

المكنونة" التي نقترحها مقابل " culture sous abri " وبدلا من التسميات العربية الأخرى مثل "زراعة تحت وقاء".

والحق أنّ وعي ضرورة استثمار التراث العلميّ واللغويّ في وضع المصطلح العلميّ والتقنيّ العربيّ الحديث، والذي تواصل في النصف الثاني من القرن العشرين قد عرف التطبيقات العمليّة الجديدة التي أملاها تطوّر المعلوماتيّة وقواعد المعلومات، من جهة، وازدهار علم المصطلح وإنشاء بنوك المصطلحات في بعض البلدان الصناعية، من جهة أخرى. ففي جامعة محمد الخامس بالرّباط تاسّس، في بداية السبعينيات، " معهد الدراسات والأبحاث للتعريب " الذي أنشأ قاعدة بيانات مصطلحيّة وصفيّة، بهدف تدارك نقص رئيسيّ يعانيه ضبط المصطلحات العربية، وهو انعدام المدونات اللغويّة التي قد تسمح باستغلال منتسق للأعمال المعجميّة القديمة والحديثة من أجل تنظيم المعجم الحالي وملء الفراغات الموجودة بالنهل من كنوز العربية الفصيحة"[26]، إذ " من الضروريّ أن ندرس ونستغل طاقة العربية منهجيّاً لا فوضويّاً. فبدون رصيد من المعلومات والوثائق اللسنيّة يكون من الوهم القيام بإصلاح جدّيّ... "[27]. وفي بداية الثمانينيات تأسس البنك الآليّ السعوديّ للمصطلحات: " باسم "[28]لتحقيق مجموعة من الأهداف في مقدّمتها بناء معجم موسوعيّ آليّ، عن طريق توثيق المصطلحات المنشورة، أي استخلاصها من مصادرها ومعالجتها وتوثيق بياناتها. على أنّ المؤسستين المذكورتين قد قصرتا جهودهما التوثيقية على المعاجم الحديثة المختصة وبعض المعاجم اللغوية الحديثة والقديمة، فلم يساعد على الإفادة من تطوّر تقنيات التوثيق المصطلحيّ المحوسب في استثمار الرصيد التراثيّ المصطلحيّ والمعجميّ الاستثمار الأمثل.

وقد ترتب على غياب مقاربة منهجيّة دقيقة لموضوع المصطلح التراثيّ وندرة الأعمال التطبيقيّة المتكاملة المستثمرة لهذا المصطلح في وضع المعجم الحديث المختص استمرار القطيعة شبه التامّة بين ماضي المصطلح العربيّ وحاضره، والتعسّف في استعمال المصطلح التراثيّ، لا سيما في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية [29]، وهو ما يحتم تأسيس وتطوير علم تاريخ المصطلح التراثيّ من أجل ضبط القيمة التاريخية والعلمية واللغوية للمؤلفات الاصطلاحية[30].

وقد اهتمت بعض الدراسات [31] باقتراح معالجة للرصيد المصطلحيّ العربيّ، بما فيه الرصيد التراثيّ، تقوم على أربع خطوات، هي جمع التسميات المصطلحيّة وحصرها وتحرير تصوّراتها (أي مفاهيمها)، وغربلتها لاستبعاد ما لايصلح منها للدلالة على المفاهيم، وتخصيصها أي إقامة علاقة أحادية بين التسمية والمفهوم،بما يساعد على إحياء التسميات التراثية وتحديثها وإعمالها وتثبيتها في مجالاتها، ويزيل الفوضى المصطلحيّة نهائيّا.

ويتضح مما سبق أنّ دور التراث العلميّ واللغويّ في وضع المعجم العربيّ الحديث المختص قد كان دوراً محدوداً في الغالب، وذلك على الرغم من الانتباه إلى أهميته بل ضرورته منذ بدايات العمل المصطلحيّ العربيّ الحديث في عصر النهضة إبّان ترجمة الشيخ محمّد بن عمر التونسيّ وزملائه " قاموس القواميس الطبية " من تأليف الفرنسيّ "فابر".

ولا تكاد الدعوات المتكررة إلى إنشـــاء مـــدونات مصطلحات التراث تضيف جديداً إلى ما رأيناه من بعض توصيات مجمع اللغة العربيـــة بالقـــاهرة في الأربعينـــات والخمسينات. وقد برهنت المعاجم التي وضـــعها بعـــض أعلام المصطلحيّين منذ عشرينيات هذا القرن والبحـــوث والدراسات التي أنجزها المختصون في العلوم عامّة والعلوم العربية خاصّة أنّ التراث العلميّ واللغويّ يمثل مورداً ثـــرّاً لاغنى عنه للمعجم العربيّ الحديث المختصّ، وأنه " لايعدّ عدم الإلمام باللغة العربية دليلاً على قصور هذه اللغـــة في التعبير وبالأخص في المجالات العلمية المختلفة"[32] . على أن قضية التراث المصطلحيّ قد لاتكون، في نهاية المطاف، إلاّ جانباً من جوانب قضية أعمّ هي قضية واقـــع العلـــم والتعبير العلميّ باللغة العربية في الوطن العـــربيّ وقضـــية العجز عن تجنيد الطاقات الذاتيّة لتحقيق التنمية المنشـــودة الأصيلة والشاملة.

الهوامش:

(1) جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة 1951، (228+79 ص) ص 192.

(2) نقلاً عن المرجع نفسه، ص 192.

(3) نقلاً عن المرجع نفسه، ص 192- 193

(4) نقلاً عن المرجع نفسه، ص 193.

(5) انظر حول التونسي ومعجم " الشذور الذهبية... "إبراهيم بن مراد: أسس المعجم العلمي المختص في الشذور الذهبيّة في الألفاظ الطبية "للتونسي"، في المعجم العربي المختص (وقائع الندوة العلمية الدولية الثالثة التي نظمتها جمعية المعجمية بتونس أيام 17 و18 و19 أبريل 1993)، جمعية المعجمية العربية بتونس ودار الغرب الإسلامي، بيروت 1996 (496 ص)، ص 19-49.

(6) مصطفى الشهابي: المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، ط 2، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1965، (219 ص) ،ص 45.

(7) انظر حول هذه المعاجم الأربعة المرجع التالي مثلا: محمود حافظ: "اللغة العربية في خدمة علوم الأحياء" "مجلة مجمع اللغة العربية" 33 (مايو 1979)، ص 79- 89.

(8) انظر حوله: إبراهيم بن مراد: المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1985((353 ص)، ص 271-308.

(9) مجمع اللغة العربية: مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاماً 1934- 1984، أخرجها وراجعها محمد شوقي أمين وإبراهيم الترزي، القاهرة 1984، (326 ص)، ص 232.

(10) المرجع نفسه، ص 233.

(11) انظر مثلا: عبد الكريم خليفة: "دور التراث العلمي في تعريب العلوم والتقنيات " في: اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، مجمع اللغة العربية الأردني، عمّان 1987، (291 ص)، ص243- 262 حيث يقول (ص 259): "ونحن نعتقد أنه من الواجب أن تنبري إحدى الجهات العربية، من خلال مؤسساتها العلمية، لكي تقوم بتكليف المتخصّصين باستقصاء المصطلحات والتراكيب اللغوية التي استعملها العلماء في كتب التراث العلمي العربي و مختلف فروع المعرفة، وترتيبها ترتيبا معجميا وفق موضوعات العلوم وجزئياتها لكي تيسر عملية اختيار المصطلح الحديث وتحديده، وتدفع بعملية استيعاب اللغة العربية للعلوم والتقنيات الحديثة على طريق السير السريع والأصالة".

(12) صدرت طبعته الأولى بدمشق سنة 1943 والثانية بالقاهرة سنة 1957. ومن الطبعة الثانية صدرت نشرة عن دار مكتبة لبنان بيروت سنة 1982 (98+ 694+XI ص). وكانت الدار نفسها قد أصدرت هذا المعجم، سنة 1978، بالإنجليزية (بدل الفرنسية) والعربية وبعنوان جديد هو: "معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية: انكليزي- عربي". انظر حول الشهابي ومعجمه: عبد اللطيف عبيد: " المصطلح الفلاحي العربي: تاريخه وقضاياه ، مجلة المعجمية، العدد 8، تونس 1992 (ص 69-122) ص 116-119.

(13) مصطفى الشهابي: معجم الألفاظ الزراعية فرنسي- عربي، ط 3، مكتبة لبنان، بيروت 1982، ص (ج) من المقدمة العربية.

(14) المرجع نفسه، ص (ج) و (د) من المقدمة العربية.

(15) المرجع نفسه، ص (د) من المقدمة العربية.

(16) المرجع نفسه، ص (د) من المقدمة العربية.

(17) المرجع نفسه، ص (هـ) من المقدمة العربية.

(18) المرجع نفسه، ص 1.

(19) نذكر من البحوث والدراسات المهمة التي تناولت موضوع المصطلح التراثي:

- عبد الأمير الأعسم: المصطلح الفلسفي عند العرب، ط 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989، 531 ص.

- محمد السويسي: لغة الرياضيات في العربية، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة)، تونس 1989، 602 ص.

أما الأعمال التطبيقية- أي المعاجم المختصة التي أفادت من التراث إفادة منهجية نقديّة واضحة- فقليلة وتكاد تقتصر، في رأينا، على هذين المعجمين الشهيرين:

- الجمهورية العربية المتحدة- القوّات المسلّحة: المعجم العسكري، 2 مج: فرنسي- عربي (641 ص) وإنكليزي- عربي (816 ص)، دمشق 1961.

- مجلس وزراء الصحة العرب واتحاد الأطباء العرب ومنظمة الصحة العالمية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: المعجم الطبي الموحد: إنكليزي- عربي- فرنسي، ط 4، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1984، و99+760 ص.

(20) يرى علي العسكري و محمد زايد في "المصطلحات العربية في علوم الأرض " (مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 40 (نوفمبر 1977)، ص 146-156)، "الرجوع إلى المراجع الخاصة بفقه اللغة والمعاجم اللفظية الكبيرة ضروري لتوحيد التعبير في ترجمة المصطحات العلمية وكم هي وفيرة في عددها ومعانيها ودرجاتها المختلفة " (ص 146).

ويرى علي القاسمي في " لماذا أهمل المصطلح التراثي " (المناظرة- مجلة مغربية فصلية تعنى بالمفاهيم والمناهج، س 4، ع 6 (ديسمبر 1993)، ص 33-40) أنه " إذا كانت اللغة تتوفر على مصطلحات في تراثها، وعمدنا إلى إغفال تلك المصطلحات وإهمالها، وعملنا على وضع مصطلحات جديدة تعبر عن ذات المفاهيم التي تعبّر عنها تلك المصطحات التراثية، فإن ذلك سيؤدي إلى إحدى نتيجتين لا مفر منهما أو كلتيهما: إمّا انقطاع تواصل اللغة وانفصام استمراريتها، وإمّا ازدواجيّة مصطلحية لاتخدم غرضنا في التعبير الدقيق والتفاهم السريع " (ص 35).

ويرى أحمد المتوكل في " استثمار المصطلح التراثي في اللسانيات الحديثة: اللسانيات الوظيفيّة نموذجا" (المرجع نفسه، ص 49- 56)، أنّ " لاستعمال المصطلحات التراثية في مجال تعريب المفاهيم الغربية مزايا عمليّة كذلك. فهو يسهم في توحيد المصطلح اللساني العربي المعاصر ويخفّف، بذلك، من البلبلة التي تسود في هذا الميدان " (ص 52).

(21) جلال شوقي: "مصطلحات علم الحركة لدى علماء العرب"، مجلة مجمع اللغة العربية، 36 (نوفمبر 1975) (ص 171-195، ص 193.

(22) ابن منظور: لسان العرب المحيط، مادة (حسا).

(23) مصطفى الشهابي: معجم الألفاظ الزراعية، ط 3، مكتبة لبنان، بيروت 1982، ص 601 (المدخل:serre).

(24) المجلس الدولي للغة الفرنسية ووكالة التعاون الثقافي والتقني: القاموس الزراعي: فرنسي- عربي، باريس 1985، (61-525 +XIX ص) ص 396 (المدخل: serre).

(25) ابن بصّال: كتاب الفلاحة، نشره وترجمه وعلق عليه خوسي ماريا مياس بيكروسا ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن، تطوان. 1955، (182+ 231)، ص 85.

(26) أحمد الأخضر غزال: المنهجية العامة للتعريب المواكب، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط 1977 (82 ص)، ص 39.

(27) المرجع نفسه، ص 47. وانظر أيضا للمؤلف نفسه: المنهجية الجديدة لوضع المصطلحات العربية- القسم الأول: البحث عن الألفاظ الموجودة في بطون اللغة، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط (د. ت)، ص 40 ص.

(28) انظر مثلا: عبد الله سليمان القفاري: " نحو استراتيجية مدعمة بالحاسب لمعالجة ونشر المصطلح الطبي العربي" اللسان العربي، 43 (1997) ص 157-190.

(29) يرى محمد عابد الجابري في " حفريات في المصطلح- مقاربات أولية " (المناظرة- مجلة مغربية فصلية تعنى بالمفاهيم والمناهج،س 4، ع 6، ديسمبر 1993، ص 9-23) متحدثا عن تجربة رواد النهضة العربية الحديثة " أن استعمال المحيط التراثي، أو إهماله، للتعبير عن معطيات الحضارة الحديثة عملية محفوفة بالمخاطر (...). فالمصطلح التراثي في هذه الحالة، المشدود إلى مرجعية خاصة تختلف عن مرجعية المعطيات الحضارية الحديثة، قد يفقد هذه المعطيات حداثتها ويفرغها من مضامينها الجديدة ليشدها إلى مضامين مغايرة تماما ..." (ص 22).

ويرى أحمد المتوكل في " استثمار المصطلح التراثي في اللسانيات الحديثة: اللسانيات الوظيفيّة نموذجا" (المرجع نفسه، ص 49-56) أنه " يتوقف استقرار المصطلح المستعار في النسق المنقول إليه، بوجه عام، على مدى نجاح عملية إفراغه من المفهوم الذي كان يدلّ عليه في نسقه الأ صلي. وعملية الإفراغ هذه تعني، في الواقع، أن المستعمل للمصطلح أصبح قادرا على أن يفصل فصلا تاما بين الحمولة المفهومية القديمة لهذا المصطلح وبين ما أصبح يرمز إليه في الاستعمال الجديد. ويبدو لي أنه من العسير جدا أن يحدث هذا في العالم العربي لما للفكر اللغوي العربي القديم من حضور (...). وينتج عن ذلك، في ذهن المتلقي، تضارب بين المفاهيم تكون الغلبة فيه، غالبا للمفهوم القديم. من شأن هذا طبعا، أن يشكل أحد العوائق الأساسية التي تحول دون استيعاب النظريات اللسانية الحديثة... " (ص 55).

(30) من توصيات ندوة " المصطلح التراثي بين الإعمال والإهمال" التي نظمتها مجلة " المناظرة" المغربية يومي 29 و 1991/05/30 بالرباط. انظر مجلة المناظرة، العدد المذكور سابقا، ص 7.

(31) انظر: سعد مصلوح " رصيد مصطلحي بغير استثمار – مثال من حقل اللسانيات"، وقائع ندوة التعاون العربي في مجال المصطلحات علميا وتطبيقا (تونس 1986/10/7)، المعهد القومي للمواصفات والملكية الصناعية، تونس 1989(523+ 141 ص) ص 256-276. ويقدم على السكري في "علم الأرض وفقه اللغة العربية " (مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 38 (1976) ص 136- 139) مقترحاً عملياً طريفاً لاستثمار الرصيد المصطلحي العربي يقول: حبذا لو اتبعنا أسلوبا جديدا في ترجمة المصطلحات العلمية، فبدلا من أن نترجم المصطلح الأجنبي إلى العربية نبدأ بالمصطلحات العربية الأصل ونحاول إيجاد المقابل لها في الأجنبية سواء كانت الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية" (ص 138).

(32) علي السكري وزايد محمد زايد: المصطلحات العربية في علوم الأرض، المرجع المذكور سابقا، ص146.